٥
قصص الصحابة
بلال بن رباح (رضى الله عنه)
عماد الشافعى
المكتب العربي الحديث

الدار يجمعُ الحطبَ ويُؤججُ ناراً لطهو شاةٍ كبيرةٍ، كان قد فَرغَ لتوه من ذَبْحها وسَلْخها.

وَضعَ الفَتى الشاةَ على السَّفود، وجَلسَ أمامها يُقلبها ببطء وحَذرٍ، وكان الضيوفُ من بنى جُمَح جالسينَ أمامَ الخيمةِ يتَسامرون رَيْثما يتمُ تجهيزُ العَشَاءِ.

الوقتُ يَمرُّ بطيئاً، ورائحةُ الشِّواء تملأُ المكانَ، وأُذنُ الفتى تلتقطُ كلماتٍ حَادةٍ وعبارات سَاخرةٍ وحائرةٍ.

صاحَ أحدُ الرجالِ ثائراً: إن مُحمداً كاذبٌ.. يَدَّعى أنه نبىٌ مُرسل. لا أدرى لماذا يَخرجُ من بنى هاشمٍ نبىٌ ولا يخرجُ من بنى جُمَح؟!

وقال رجلٌ آخر ساخراً: أنتركُ الأصنامَ.. ونعبدُ إلهاً واحداً؟! أجعلَ مُحمدُ الآلهةَ إلهاً واحداً؟! إن هذا لشئٌ عجيبٌ!! إن محمداً لا شكَّ مجنونٌ، ما سمعنا بهذا من قبلُ.

قال رجلٌ ثالثٌ بصوتٍ هادئ: إننى ـ والحقَّ أقولُ ـ لم أعهد

عليه الكذبَ، ولقد نَشَأ محمدُ بيننا صادقاً أميناً، وعاشَ بيننا عاقلاً ونزيهاً. لكنى أتساءلُ: كيف نتركُ ما كان يعبدهُ آباؤنا؟!.

قال أميةُ بن خلف ـ صاحب الدار: نحنُ نعلمُ ذلكَ، وما كان مُحمدُ يوماً كاذباً ولا ساحراً ولا مجنوناً، لكن لابدَّ من وَصْمه بذلك حتى نَصُدَّ عنه الذين يُسارعون إلى دينه، وقَبْل أن يَحْظَى بمجدٍ وشُهرْة بين العرب.

ثم صاحَ أُميَّةُ: يا بلالْ.. أنتَ أيها الحَبشىُّ. هَل فرغتَ من طهوِ الطَّعامِ؟

لم ينتبه الفتى إلى النِّداء فقد كان غارقاً فى التفكيرِ فيما يقولهُ هؤلاء الضيوف.

صاحَ أميةُ بغضبٍ أشدَّ: أنتَ أيها العبدُ الأسودُ، ألا تَسمعُ؟!

نَهضَ بلالُ مُسْرعاً وقال: لَبيَّكَ سيدى!

سأله: هل أصابكَ صَمَمٌ؟! أُناديكَ فلا تردَّ. هل فرغتَ من إعدادِ الطَّعامِ؟

- نعم يا سيدى، سأرفعُ بعد قليل الشَّاةَ من على السَّفودِ.

وضَعَ الفتى الشاةَ المطهوةَ أمام الضيوفِ، ثم انزوى فى رُكنٍ من الدار حتى يَفرغَ الرجالُ من طعامهمِ. وبعد قليلٍ رَفعَ المائدةَ وراحَ يدورُ عليهم بأقداحِ النَّبيذ. كان حَديثهُم وسَمَرُهم لا يزالُ دائراً عن ذلك الرجل الذى يُدعى مُحمدٌ الذى أتى بدينٍ جَديدٍ وأنه يخرجُ وأتباعُه فى شِعابِ مكةَ للصلاةِ.

كان الفتى بلال بن رباحٍ عبداً حبشياً عند أُمية بن خَلَف أحدُ شيوخِ بنى جُمَحٍ، وكانت حياتُه كُلُّها عَناءاً وتعباً، وأيامُه متشابهةً، وأحلامهُ وآماله سَراباً، فهو لا يملكُ من أمْرِه شَيْئاً.

سَمِعَ بلالُ من تهامُسِ أفرادِ القبيلةِ، ومن تَحاوُرِ أصدقاءِ سيده عن مُحمدِ بن عبد الله، وعن الدِّين الجديد، وكان حديثهُم يَطْفحُ حِقْداً وكبراً، فأثار ذلكَ تفكيرهُ، وودَّ لو رأى بنفسه مُحمداً واستمع إليه.

***

فى هَدْأةِ الليل خَرجَ أبو بكر الصديق، وكان قد آمنَ بدعوةِ مُحمدٍ وكان يدعو إليها سراً أصدقاءهُ وكُلُ من يتوسمُ فيه الخيرَ.

توجه الصِّديقُ إلى دار أُمية بن خلفٍ، ونادى عليه، فخرجَ إليه بلالُ وعندما رآه بلالُ هتفَ بدهشةٍ:

من؟! عبد الله بن أبى قُحافة. تفضل، هل تُريد سيدى أميةَ؟

قال أبو بكر بصوتٍ خافتٍ: كلا.. بل أُريدك أنتَ يا بلال، أنا جئتُ لأخبركَ بنبأٍ عظيمٍ.. ظَهر نبىٌّ هذه الأُمةِ، إنه مُحمدُ بن عبد الله. فقد أوحى الله إليه أن يدعو النَّاسَ إلى عبادة الله وحده ولا يُشركونَ به شيئاً.

تذكَّر بلالُ كلامَ القبيلة عن محمدٍ فسأل: وهل اتبعهُ أحدُ من قريشٍ؟

قال أبو بكر: نعم.. آمنَ به بعضُ عَشيرته وأصحابه، وهو يجتمعُ بهم فى شِعاب مكةَ بعيداً عن أعينِ الناسِ، يُعلمهم كلامَ الله ويُصلى بهم.

فرحَ بلالُ فرحاً شديداً، وتَلفَّتَ أبو بكر حوله لينظرَ هل يراهُما أحدٌ من الناسِ، ثم انصرفَ.

وفى اليوم التالى غَافلَ بلالُ سيدهُ وتسلَّلَ إلى شِعْبِ أجَيَادٍ

خارج مكةَ وجلس يُصْغى باهتمامٍ إلى كلام النبى ﷺ فحنَّ قلبُه، وجاشتْ مشاعُره، وأعلنَ إسلامه.

ونصحه النبىُ أن يُخفى إسلامُه حتى لا ينالَ من سيده الأذى.

كان هذا اللقاءُ قد فَجَّر طُوفانَ المشاعر فى نفسِ بلال، فأصبحَ يُقْبل على الحياة بسعادة، ويُنجز عمله بهمةٍ وسُرعةٍ، وبين الحين والآخر يتسللُ خُفيةً إلى شعاب مكةَ ليحضر اجتماع النبى مع أصحابه، ويسمعَ القرآن، ويُصلى لله.

وذاتَ يومٍ يَنْسى بلالُ نفسهَ فى غمرةِ العمل، فإذا به يتلو آيات من القرآن، ويسمعه أُميةُ بن خلف فيدرك أنه أتَّبعَ مُحمداً وآمنَ بدعوته. فيطيشُ وعيه ويجره بغلظةٍ على الرمال الساخنة صائحاً: أتترك اللاتَ والُعزى أيها العبد الآبقُ؟! وتنهمرُ السِّياطُ القاسيةُ على جسد الفتى العارى فتسيلُ منه الدِّماءُ، لكن لسانَ بلال لا يكفُّ عن تَرْديد نشيدَهُ الخالد، أحَدُ.. أحَدُ!! فيزدادُ أميةُ غُروراً وكِبْراً. ويضعُ على صَدره العَارى صَخْرةً كبيرةً. الرِّمالُ الساخنةُ تَشْوى جلدهُ الأسود، ولفحةُ الهجيرِ تقتلهُ عَطَشاً، والصخرةُ

القاسيةُ تدقُّ عظامهُ. عذابٌ لا يتحملهُ بَشرٌ، ويأمرهُ أُميةُ أن يَسبَّ مُحمداً ويذكرَ الآلهةَ.. فيردُّ بلالُ بصمودٍ عنيدٍ: أحَدٌ.. أحَدٌ.

وتَميلُ الشمسُ إلى الغروبِ، ويرفعُ الجلادونَ الصَّخرةَ عن صَدرِ بلالٍ، ويرجعونَ به إلى الدارِ لا تكادُ تحملهُ قدماهُ من الجوعِ والإعياءِ والعطشِ.

ويَشيعُ فى مكةَ إسلامُ بلالٍ وتعذيبُ سيده له. ويرى أبو بكرُ الصِّديقُ بلالَ بن رباح طَريحَ الرِّمالِ الساخنةِ يتَلقى التعذيبَ بصبرٍ وجَلَدٍ فيصيحُ فى جلاديه: ما لكمُ.. أتقتلونَ رَجُلاً أن يقول ربى اللهُ؟!

فيصيحُ أميةَ بن خلفٍ: وما شأنكَ أنتَ؟!.. إنهُ عبدى أفعلُ به ما أشاءُ.. أعْتقه إن شِئْتَ. فما أفسدُه إلا أنتَ وصاحبُكَ.

فيردُ أبو بكر: نعم.. أنا أشْتريه.

ويجدُ أميةُ فرصتُهُ فى الخلاصِ من هذا العبد الآبقِ الذى أعياهم، وهَدَّ قُوَاهَم، فيوافق على بيعه. ويدفعُ فيه أبو بكر سبعَ أواقٍ من الذَّهبِ. فيأخذها أُميةُ وهو ينظر إلى بلالٍ ساخراً ويقول

لأبى بكر هَازِئاً: خُـذه. . فـواللات والعُـزَّى لو أبَيْت إلا شـراءه بأُوقيةٍ واحدةٍ لبعتهُ لكَ.

فيصيح أبو بكر بعزةٍ: والله لو أبَيتُم إلا مائة أوقية من الذهب لاشتريته.

ويتلقى أميةُ الصَّفعة خَاسِئاً، ويُطْلق زَفرةَ غضبٍ ثم ينصرفْ.

***

وينتـشرُ الإسـلامُ بين النَّاسِ، ويهـاجرُ النبى والمسلمـونَ إلى المدينة، ويأمـر النبىُ ببناء مـسجـد. وكـانت الصـلاةُ إذا حَضـرتْ يُنادى منادى النبى: الصَّلاةُ جامعةٌ.

جلس النبى ﷺ ذات يومٍ فى المسـجد يتشاورُ مع أصـحابه فى طريقة تُذكَر الناسَ بموعد الصلاة، وسيلة تذكر السَّاهر وتنبهُ الغافل حتى يكون الاجتماعُ للصلاة عاماً. فقال بعضهمُ: نرفعُ رايةً ليراها الناسُ.

فقال النبىُ: ولكنها لا تُفيدُ القائمَ ولا الغافلَ.

وقال آخرون: نُشْعلُ ناراً، وأشارَ بعضـهمُ بنفخِ بوق، أو دَقٍّ

ناقوسٍ، فكَرِهَ النبيُّ ذلكَ كلَّه لأنها تُشبه ما يفعله المجوسُ أو اليهودُ أو النصارى. وتفرقوا على غير رأيٍ.

وبينما كان عبد الله بن زيد الأنصارى بين النَّوم واليقظةِ إذ بدا له رجلٌ وبيده ناقوسٌ فسأله: أتبيعُ الناقوسَ؟

قال الرجل: ماذا تُريدُ به؟

قال: أُريدُ أن أضربَ به للصلاة ليجتمعَ الناسُ.

قال الرجل: ألا أدلك على خيرٍ من ذلكَ. . كلماتٍ تقولها عند النداء للصلاة.

قال: بَلَى.

قال: قُلْ: الله أكبر الله أكبر، أشهدُ أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسولُ الله. حى على الصلاة. حى على الفلاح. الله أكبر الله أكبر. لا إله إلا الله.

واستيقظَ عبدُ الله وذهبَ إلى النبى يُخبرهُ برؤياهُ. فقال النبى: إنها لرؤيا حَقٌ. لَقِّنها بلالاً فإنه أنْدَى منك صوتاً.

ويحينُ وقتُ الصلاة، ويَقفُ بلالُ بن رباح على سقف المسجد ويرفع صوتَهُ لأول مرة بالآذان . . نداءٌ شجيٌّ يتردد في أرجاء الكون، فيسمعُه النَّاسُ ويأتون إلى المسجد .

ويخرجُ عمر بن الخطاب مُسْرعاً ويقولُ للرسول : والله لقد رأيتُ مثله يا رسول الله . فيقولُ النبى : الحمد لله . إنها رؤيا حقٌ .

***

ويحضرُ بلالُ الغزوات والمعارك مع رسول الله، ويُلازمُ النبىَّ فى إقامته وسفره كأنه خادُم، وما هو بخادمٍ، وفى المسجد يرفعُ الآذانَ ويُقيمُ الصلاةَ، وفى السَّحَرِ يذهبَ إلى حُجرات النبى ويُنادى من الخارجِ : الصَّلاةُ يا رسول الله . فيقومُ النبى لصلاة الفجر .

وتمضى الأيامُ، ويتزوجُ بلالُ من امرأة بارَّة وَفية، وكان يُحسنُ عِشْرتها ويُحبها . غير أن حُبَّه لرسول الله كان طاغياً .

***

حَاصر النبىُّ حُصونَ خَيْبر - أولئك اليهُود الذين نَقَضوا العهدَ معه، وغَدروا بالمسلمين، وأعدَّ النبى خُطةً للهجوم بقيادة على بن أبى طالب لفتحِ الحِصْنِ. واستطاعَ علىٌّ أن يقتل قائدَ جيش اليهود، ولما رأى اليهودُ مَصرعَ قائدهم ولوُّا مُدْبرين، وتشتتوا فَزَعاً.

وعندما فتحَ المُسلمون حِصْنَ العَمْوص جِيءَ بصفيةَ بنت صاحب الحصن وفتاة صغيرةَ قريبةٍ لها إلى الرَّسولِ، فأرسلهما النبىُ مع بلالٍ إلى رَحْلِه حتى ينتهى القتالُ.

ويمرُّ بلالُ بالفتاتين على القتلى من قومهما، فتفزعُ الفتاةُ الصغيرةُ وتصيحُ صياحاً شديداً وتلطم وَجْهها. وعلم النبىُ بذلك فحزنَ وقال لبلالٍ عاتباً: وَيحْك يا بلالُ! . . أنُزِعتْ منكَ الرحمةُ. . أتمرُّ بجاريةٍ صغيرة على القتلى؟!

فيعتذر بلال: يا رسولَ الله ما ظننت أنكَ تكرهُ ذلك، وأحببت أن ترى الفتاة مصارع قومها.

وأخيراً طلب اليهود الصُّلحَ، فوافقَ النبى ﷺ، وأمرهم بمغادرة

البلادِ لأنهم لا أمانَ لهم ولا عَهدَ لهم.

ويعودُ المسلمونَ بعد موقعةِ خيبرٍ إلى وادى القُرى، ويضربون خيامهم للراحة. ووكل النبىُ إلى بلالٍ أن يُوقظه لصلاة الصبح. وكان الحر يومها شديداً، فنامَ النبى والمسلمون حتى طلعتْ الشمسُ وغضبَ النبىُّ وقال هو يَمسحُ العَرقَ عن جبينه: لا حولَ ولاقُوةَ إلا بالله.. كانتْ أنفُسنا بيد الله، فلو شاءَ لقبضها وكان أولَى بها! ثم التفتَ إلى بلالٍ وهتفَ به: وَيْحَك يا بلال!

فبادرَ بلالُ مُعْتذراً وهو يقول: بأبى أنت وأمى يا رسولَ الله، قَبضَ نفسى الذى قبض نفسكَ.

فتبسَّمَ النبى ﷺ وعفا عنه، ثم توضأ وصلَّى الصبحَ بالمسلمين.

***

عاشَ المسلمونَ بعد فتحِ حُصون خيبرَ فى أمانٍ وسلامٍ، وعندما حَانَ موعدُ ذهاب المسلمين لزيارة الكعبة، أمرَ النبى المسلمين بالاستعداد للرحيل إلى مكة.

ودخلَ المُسلمون مكةَ، وطافوا بالكعبةِ وهُم يُرددون التكبيرَ

والدَّعوات. وحَضرتْ الصلاةُ، فأمر النبى بلالاً أن يصعَد فوقَ الكعبةِ ويؤذن للصلاة.

وترددتْ فى الأرجاء كلماتُ الآذانِ: الله أكبر الله أكبر، واصطفَّ المُسلمونَ فى الصلاة خلفَ النبى، ووقفَ المُشركون يفركونَ أعينهم وينظرونَ فى دَهْشةٍ وذُهولٍ إلى هذا النظام، وهذا الجَلالَ.

وتهامسَ بعضهم: انظروا.. أليسَ هذا بلالُ العبد الحبشى الذى كان يُعذبهُ سيدهُ فى بطحاء مكة؟!.. إنه اليوم يرفعُ نداءَ الإسلامِ من فوق الكعبة!

وقال آخر متحسراً: إنه الدِّينُ الجديد يا صاحبى الذى جَعلَ من بعض العبيد سَادةً، هذا الحَبَشىُّ الأسودَ لم يكن قبل الإسلام أكثرَ من عبدٍ رقيقٍ يَرعى إبلَ سيدهُ على حفنْات من التَّمر.

وقال رجلٌ ثالثٌ وقد أكلتْ الحسرةُ قَلَبهُ: لولا الإسلامُ لبقى

بلالُ تائهاً فى أعماقِ النِّسيان والهَوان. إن الإسلامَ بدَّل أحوالَ أصحابه.

مَرَّتْ أيامٌ ثلاثةٌ، والمسلمونَ يُؤدونَ مناسكهم فى هُدوءٍ، ويُعاملون أهلَ مكة بأخلاقٍ ساميةٍ، وبين حينٍ وآخرَ يتردد الآذانُ فى الأرجاء بصوتِ بلالِ بن رباحٍ. ويعودُ مَوْكبُ المسلمين إلى المدينةِ.

وينتشرُ الإسلامُ فى مكةَ والمدينة وبلادِ العرب. وتصبحُ دولةُ الإسلام كبيرةً وقويةً.

وفى السنةِ الحادية عشرة بعد الهجرة، يمرضُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وتصعد روُحهُ الطاهرةُ إلى بارئها راضيةً مَرضيةً. ويبكى بلالُ على فراق النبى بُكاءً شديداً، ويدورُ حَولَ قبرهِ وهو يحملُ قِربةً، يبللُ ذلك الثَّرى الطاهرَ بالماءِ وفاءاً وحُباً.

ويحينُ وقتُ الصلاةِ فيصعدُ بلالُ المسجدَ ليرفع الآذانَ كعادته،

وعندما يُرددُ: أشهد أن مُحمداً رسولُ الله، يَجْهشُ بالبكاء، ويَجهْشُ الصحابةُ كلهم بالبكاء.

وذاتَ يومٍ يذهبُ بلال بن رباحٍ إلى أبى بكر الصديق خليفةُ رسولُ الله يَسْتأذنهُ فى الخروجِ للجهادِ فى سبيلِ الله فى الشَّام مع جيش المُسلمين. فيسألهُ أبو بكر: ومن يُؤذن لنا؟

فيردُ بلالُ: إننى لا أستطيعُ أن أرفعَ الآذانَ بعد موتِ رسول الله.

فيقول أبو بكر: ابْقَ معنا فى المدينة وأذن لنا يا بلالُ، فقد اعتدنا سماع الآذان بصوتك.

بلال: إن كنتَ أعتقتنى لنفسكَ فاحبسنى، وإن كُنتَ أعتقتنى لله، فدعنى أذهبُ لله عز وجل.

فيقول أبو بكر بدهشةٍ: بل أعتقتكَ لله يا بلال!.

ويسافر بلالُ للجهاد فى سبيل الله .

وتمرُّ سنواتٌ طويلةٌ، ويَتمُ فتحِ دمشقَ فى خلافةِ عُمر بن الخطاب . ويحينُ وقت الصَّلاة، ويصعدُ بلالُ مرتفعاً من الأرض ليرفع الآذانَ بصوته الشَّجىِّ . . الله أكبر . . الله أكبر ويُصغى المسلمون إلى الصوتِ الذى طَالَ انقطاعُه، وإذا بالأنفاسِ تَضْطربُ فى وَجْدٍ، والأعينُ تتلفتُ حولها فى دهشةٍ .

إن هذا الصوتَ يُذكرهم بحضورِ النَّبى . ولكن أين هو الآن النبى صلى الله عليه وسلم؟! . .

وتنهمرُ دمُوع عمر بن الخطاب ويبكى الصحابةُ حنيناً وشَوْقاً .

ويسكنُ بلالُ بن رباحٍ فى ضَيْعةٍ صغيرةٍ بجوارِ دمشق كان يزرعها بنفسه ويعيشُ من غَلَّتها، ويَهزُه الحنينُ إلى حبيبهِ النبىُّ صلى الله عليه وسلم، ويشتدُ مرضُهُ وهو فى نحوِ السَّبعين وتسهرُ زوجتهُ على راحتهِ وعِلاجِه، وتصيحُ ساعةَ الاحتضارِ، واحُزْناهُ!

فيُجيبها قبل أن تَصْعدَ رَوحهُ إلى ربِّها : بَلْ وافرحتاهُ . . غداً نَلْقى الأحبةَ، مُحمداً وصَحْبُه .

(ومات بلالُ بن رباحٍ فى دمشق، ودُفِنَ عند الباب الصغير هُناك . . رضى الله عنه) .

تمت بحمد الله